

التسبيح

عناصر الموضوع

٥٤	مفهوم التسبيح
٥٥	التسبيح في الاستعمال القرآني
٥٦	الألفاظ ذات الصلة
٥٧	تسبيح الله عز وجل نفسه
٦٤	المسبحون لله عز وجل من المخلوقات
٨٨	من صيغ التسبيح
٩٤	مواطن التسبيح
١٠٢	أزمنة التسبيح
١٠٩	فوائد التسبيح

مفهوم التسبيح

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ب ح) تدل على معنيتين: أحدهما: جنسٌ من العبادة، ومنه التسبيح، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء. والمعنى الآخر: جنسٌ من السعي، وهو السبح والسباحة، وهو العوم في الماء^(١).

يتبين مما سبق أن للتسبيح في اللغة معنيين: أحدهما: التنزيه والتبرئة من السوء، والآخر: قول: (سبحان الله)، والمعنى الثاني راجع إلى المعنى الأول^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

يعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة، والمعنى الاصطلاحي (الشرعي) للتسبيح هو نفس المعنى اللغوي، لا يختلف عنه، أي: بمعنى تنزيه الله عن السوء، وقد ورد هذا المعنى للتسبيح عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنه، وعن كثير من أئمة السلف والخلف^(٤).

وقال أبو السعود: «والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقاداً وقولاً وعملاً، عما لا يليق بعجابه سبحانه»^(٥).

وقال ابن القيم: «ومعنى هذه الكلمة - يعني (سبحان الله) - تنزيه الرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به»^(٦).

وبهذا يمكن أن نخرج بتعريف اصطلاحى للتسبيح بأنه: تنزيه الله عز وجل في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥.

(٢) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١/ ٢٣.

(٣) جاء ذلك في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تفسير سبحان الله قال: هو تنزيه الله عن كل سوء، أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب الدعاء، ١/ ٥٠٢ ح ١٨٠٢، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٤) جمع كثيراً من تلك الأقوال الدكتور محمد كندو في كتابه التسبيح في الكتاب والسنة ١/ ٧٢-٧٥.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/ ٨٣.

(٦) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٤٥٢.

التسبيح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سبح) في القرآن (٩٢) مرة، يخص التسبيح منها (٨٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]
فعل الأمر	٢	﴿فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ السُّجُودَ﴾ [ق: ٤٠]
المصدر	٢	﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]
اسم المصدر	٤١	﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]
اسم الفاعل	٢	﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ السَّابِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦]

وجاء (التسبيح) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء^(٢). ولم يخرج عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٦٣٨-٦٤٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقديس:

التقديس لغة:

مشتق من الفعل (قدس) بمعنى: طهر، والتقديس هو التطهير والتبريك، وتقديس أي تطهر، من ذلك قيل للسطل: القدس؛ لأنه يتقدس منه، أي: يتطهر، وسمي بيت المقدس بذلك لأنه البيت المطهر، والمكان الذي يتطهر به من الذنوب، والتقديس: تنزيه الله عز وجل ^(١).

التقدير، اصطلاحًا:

التقديس: التطهير الإلهي، والتعظيم لله عز وجل، والتطهير هنا غير التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة^(٢).

الصلة بين التقديس والتسبيح:

اللفظان يحملان نفس المعنى من تبعيد الله عن السوء؛ إلا أن التقديس أعم من التسبيح؛ إذ كل مقدس مسبح، وليس العكس؛ فالتسبيح يختص بالله عز وجل دون سواه، أما التقديس فلا يختص به سبحانه؛ بل يستعمل في حق الأدميين وغيرهم من المخلوقات، فيقال: فلان رجل مقدس: إذا أريد تبعيده عن مسقطات العدالة ووصفه بالخير، ولا يقال: رجل مسبح، ويقال: قدس الله روح فلان، ولا يقال: سبحه، ويقال: الأرض المقدسة، ولا يقال: الأرض المسحة^(٣).

وذكر بعض المفسرين: أن التسييح يكون بتنزيه الله عز وجل بالقول والعمل، والتقديس تنزيه الله عز وجل باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية^(٤).

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٥٥٠.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٩٦.

(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٢٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٠٦.

تسبيح الله عز وجل نفسه

كل ما في القرآن الكريم من تمجيد الله عز وجل لنفسه العلية؛ وذكر أسمائه الحسنی وصفاته العلی، وبيان قدرته وعظمته، والحديث عن آياته وآلائه، وقوته وجبروته سبحانه وتعالى، كل ذلك يدخل في تسبيح الله عز وجل لنفسه، وهذا كثير في كتاب الله عز وجل لا يمكن حصره؛ ومن أمثلته آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وأواخر سورة الحشر، وغير ذلك كثير في كتاب الله عز وجل.

والذي نريد بيانه في هذا المبحث هو ما ورد من تسبيح الله عز وجل لنفسه في كتابه العزيز بلفظ التسبيح الصريح، ولقد سبح الله عز وجل نفسه العلية في كتابه العزيز - بلفظ التسبيح - في مواضع كثيرة، بلغت سبعة وعشرين موضعاً.

وباستقراء الآيات التي سبح الله عز وجل فيها نفسه نجد أن الله عز وجل قد نزه نفسه فيها عن الولد، وعن الشريك، وعن أن يلحقه نقص أو ضعف.

أولاً: تنزيه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد:

المفترون من نسبة الولد له سبحانه، ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ [البقرة: ١١٦].

بين سبحانه في هذه الآية أن جميع ما في السماوات والأرض مملوك له، وعبيد له سبحانه، وفي هذا بيان للمانع عقلاً من اتخاذ الولد^(١).

وفي سورة النساء قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

فبين سبحانه في هذه الآية أيضاً أن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فلا شريك له سبحانه، فكل الخلق - في السماوات والأرض - له، وعيسى عليه السلام وأمه مريم من جملة ما في السموات وما في الأرض؛ فكيف يكون عيسى إلهاً أو ولداً لله وهو مخلوق لله عز وجل؟!^(٢)

وفي سورة يونس قال سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا

(١) انظر: أنوار التنزيل، البضاوي ٣٨٨/١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤٢٢/٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥/٦.

لقد ورد في كتاب الله عز وجل آيات تسع نزه الله عز وجل فيها نفسه المقدسة - بلفظ التسبيح - عما وصفه به المشركون

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿يونس: ٦٨﴾.

فأخبر سبحانه أنه ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فأقام الحجة على
بطلان قول المشركين؛ حيث بين أنه سبحانه
هو الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، فكيف
إذا احتاج إلى ولد أو بنت فيستغني به وهو
الغني الحميد؟! وبرهان آخر على غناه أن له
ما في السموات وما في الأرض، فالجميع
خلقه ومملكه، فهل يعقل أن يتخذ السيد
المالك عبداً من عبيده ولذا له (١).

وفي سورة النحل سبح الله عز وجل
نفسه عما نسب إليه المشركون من أن له
البنات، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وفي التيسير في هذه الآية تعجب
من قول أولئك المشركين، حيث جعلوا
لأنفسهم ما يشتهون من البنين، ونسبوا ما
يكرهون من البنات لله عز وجل، ففضحهم
الله عز وجل، وقال في الآية التالية لتلك
الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا
بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وفي سورة مريم والأنبياء والمؤمنون نزه

الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد، ﴿مَا
اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾
[المؤمنون: ٩١].

فهو سبحانه بيده كل شيء ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

وكل المخلوقات ملكه وطوع أمره، حتى
الملائكة العظام - الذين قال عنهم المشركون
أنهم بنات الله - ما هم إلا عباد لله، مكرمون
عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم
له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا، لا يتقدمون
بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به؛
بل يبادرون إلى فعله، وهو سبحانه محيط
بهم، عليم خبير، فلا يخفى عليه منهم خافية
﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْخَفُونَهُ
بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا
لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾
[الأنبياء: ٢٦ - ٢٨] (٢).

وفي سورة الزمر بين الله عز وجل بطلان
ما نسب إليه المبطلون من اتخاذ الولد؛ بأن
بين أنه سبحانه له ملك كل شيء، وهو
سبحانه الذي يعبد كل شيء، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ
أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر:

٤].

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٩٨/٩.

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤٩١/٢.

وقال السدي أيضًا: المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدًا؛ ولكن لا ينبغي له ذلك سبحانه»^(٢).

وفي سورة الصافات نزه الله عز وجل نفسه عما نسبته المبتطلون ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٥٩].

لقد افترى المشركون بهتانًا عظيمًا، وقالوا زورًا كبيرًا؛ إذ زعموا أن بين الله وبين الجن نسبًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم من الجن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم عبادًا أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾، الملك العظيم، الكامل الحليم، سبحانه عما يصفه به المشركون^(٣).

وفي الآية الأخرى من السورة ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

«ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدها ويرثها عما يقول الظالمون المكدبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١١٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٨.

ولو كان له ولد لم يكن له عبدًا، فأني يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذل، ومن سطوته خاشع، فتعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد؛ فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء فقير إليه، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرًا^(١).

وفي آيتي الزخرف يسبح الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢].

قال القرطبي: «المعنى: قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده؛ ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت بالدليل فأنا أول من يعتقده؛ وهذا مبالغة في الاستبعاد؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيق في الكلام، والمعنى على هذا: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. وقال مجاهد: المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده، على أنه لا ولد له.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/٢٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/١١٢.

علوا كبيرا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين^(١).

ثانيًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن الشريك:

ورد في كتاب الله عز وجل عشر آيات نزه الله عز وجل فيها نفسه - بلفظ التسييح - عن أن يكون له شريك يشاركه في الخلق أو الملك أو الحكم^(٢).

وقد ساق الله عز وجل - في هذه الآيات - لعباده الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة المقنعة على بطلان القول باتخاذ الشريك؛ فالله سبحانه غني عن الشركاء، فهو خالق جميع المخلوقات، فكيف لمخلوق أن يشارك الخالق؟!

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ومن أعظم الأدلة التي ساقها الله عز وجل على نفي الشريك: قوله سبحانه في آية الإسراء: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا

لَأَبْنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الأنعام: ٤٣ - ٤٢].

فلو كان هناك آلهة أخرى لتسابقوا وتنافسوا إلى ذي العرش لإزالة ملكه والتغلب عليه، أو المعنى لو كان آلهة أخرى لسعوا إلى ذي العرش يبتغون رضاه لأنهم دونه، وفي ذلك كله ردٌّ على أولئك المشركين الذين نسبوا لله الشريك، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٣).

وكذلك آية الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، «فلو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله عز وجل تدبر أمرهما، لفسدتا، ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب؛ وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم، فيختل نظام الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في العالم، ولما كان المشاهد غير ذلك؛ إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلهاً واحداً قادراً حكيمًا لا شريك له»^(٤).

أما في آية المؤمنون فقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الشريك، مبيّنًا دليلاً قطعياً آخر على وحدانيته واستغنائه عن الشركاء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/٨٠٣.
(٢) هذه الآيات هي: الأنعام: ١٠٠، التوبة: ٣١، يونس: ١٨، النحل: ١، الإسراء: ٤٢-٤٣، الأنبياء: ٣١-٣٣، المؤمنون: ٩١، القصص: ٦٨، الروم: ٤٠، الطور: ٤٣.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣٨/٥.

(٤) الوسيط، طنطاوي ٩/١٩٧.

معقب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمر كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً^(٢).
أما في آية الروم فقد نزه سبحانه نفسه مبيناً بعض أفعاله التي لا يقدر عليها إلا هو سبحانه، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُخْسِئُكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]. فهل يقدر الشركاء على شيء من ذلك؟^(٣).

ثالثاً: تنزيه الله عز وجل نفسه عن النقائص من خلال بيان عظمته وقدرته:

سبح الله عز وجل نفسه في كتابه العزيز عن كل ما نسب إليه الكافرون المفترون، وعن كل ما قد يظنه المبطلون من نقص أو عجز أو سوء، ومجد سبحانه نفسه ببيان بعض مظاهر قدرته وعظمته، وبيان بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وورد ذلك في كتاب الله عز وجل بلفظ التسبيح الصريح في تسعة مواضع^(٤) في سبع سور،

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ يَمَّا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال ابن القيم: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين؛ فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضرر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحيث فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه؛ بل إن قدر على قهره وتفرد بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد، وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون»^(١).

وفي آية القصص ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَنَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

«يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا

(١) التفسير القيم ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٧٩/١٠.

(٣) انظر: الكشف، الزمخشري ٥٨١/٤.

(٤) هذه المواضع هي: الإسراء: ١، النمل:

وهذه المواضع هي:

قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ هَاهُنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

حيث «بنزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة، والمنن الجسيمة، التي من جملتها أنه أسرى بعبدته ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام -الذي هو أجل المساجد على الإطلاق- إلى المسجد الأقصى -الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء-؛ فأسرى به في ليلة واحدة، إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد بها هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه ولطفه به صلى الله عليه وسلم؛ حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين»^(١).

وفي سورة النمل يقص علينا ربنا عز وجل قصة موسى عليه السلام عندما قال لأهله -في طريق عودته إلى مصر-: ﴿إِنِّي مَأْتِسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفْرَتُهَا فِجْزِيرَ أَوْ أَيْتَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ

٦-٧، الروم: ١٧-١٨، يس: ٣٦، ٢-٨٣،

الصافات: ١٥٨-١٥٩، ١٨٠، الزمر: ٦٧،

الحشر: ٢٣.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٣.

مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٧-٨].

ففي ذيل الآية الأخيرة نزه الله عز وجل نفسه المقدسة عن كل نقص أو سوء قد يتطرق إلى بعض العباد؛ فنزه سبحانه نفسه عن مشابهة المخلوقات، يفعل سبحانه ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، لا تكتنفه الأرض والسماوات؛ بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات^(٢).

أما في آيتي سورة الروم: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

فيسبح الله عز وجل نفسه، ويأمر عباده أن يسبحوه في هذه الأوقات، وقد حمل كثير من المفسرين المقصود بالتسبيح في هاتين الآيتين على الصلوات الخمس المفروضة.

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: المعنى فصلوا لله حين تمسون، أي حين تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الزوال، وعشيًا: أي وسبحوه عشيًا، وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس؛ فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني به صلاة المغرب والعشاء،

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/٣٩٣.

أو نسبوا لله صاحبة أو الولد، أو افتروا على الله الكذب والبهتان، ما عرفوا الله حق المعرفة، وما عظموه وما قدروه حق قدره، وهو الذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته، والسموات يطويها يمينه - وذلك يوم القيامة -، فالسموات والأرض جميعاً في يده، ويقول: أنا الملك، أين الملوك؟ صاحب هذه القدرة العظمى كيف يعبد معه آلهة أخرى؟!

لذا نزه الله تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزهه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد، وعن صفات المحدثين، وتعالى عما يشركون، وترفع عن أن يكون له شريك، وهو رب كل شيء ومليكه (٤).

أما في آية الحشر فقد نزه الله عز وجل نفسه بعد أن ذكر بعض أسمائه الحسنی وصفاته العلی، فقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

«فالله سبحانه هو المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو، الملك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المنزه عن كل نقص، الذي سلم من كل عيب، المصدق

﴿وَحِينَ تَصْبِحُونَ﴾ يعني به صلاة الفجر، ﴿وَعِشَاءً﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تَضَاهُونَ﴾ الظهيرة (١).

وفي سورة يس سبح الله عز وجل نفسه في موضعين: الأول: قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]. والآخر: قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

وفي كلا الموضعين يتزه الله عز وجل نفسه ببيان بعض مظاهر عظمته وقدرته، وبإبداع خلقه وعظيم سلطانه وملكوته، فتتزه من خلق الأزواج والأصناف جميعاً، من النبات والحيوان والإنسان ومما لا نعلم (٢)، وتنزه من بيده ملك كل شيء، وخزائن كل شيء، المتصرف في كل شيء، والجميع راجع إليه سبحانه (٣).

وفي سورة الزمر بيان لعظيم قدرة الملك سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالمشركون الذين أشركوا مع الله غيره، (١) زاد المسير ٦/٢٩٣.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/١١٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/٥٥٧.

(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٥٠٧.

المسبحون لله عز وجل من المخلوقات

لقد بين الله عز وجل في كتابه العزيز أن جميع المخلوقات تسبح له سبحانه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذكر عز وجل في كتابه العزيز تسبيح بعض مخلوقاته على وجه الخصوص؛ فذكر تسبيح الملائكة، وتسبيح بعض الأنبياء، وتسبيح المؤمنين، وتسبيح من عبدوا من دون الله، وفي المطالب التالية سنقف بإذن الله تعالى مع الآيات التي ذكرت تسبيح هذه المخلوقات لربها عز وجل.

أولاً: تسبيح الملائكة عليهم السلام:

الملائكة خلق من خلق الله عز وجل، وهم عباد مكرمون، خلقهم سبحانه لعبادته، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، فمن أنكرهم فهو كافر، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ولقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح الملائكة لربها سبحانه في عشرة مواضع من

رسله وأنبياءه بما يرسلهم به من الآيات، البيّنات، الرقيب على كل خلقه في أعمالهم، العزيز الذي لا يغالب، الجبار الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، المتكبر الذي له الكبرياء والعظمة. تنزه الله تعالى عن كل ما يشركونه به في عبادته^(١).

هذه هي المواضع من كتاب الله عز وجل التي ورد فيها تسبيح الله عز وجل لنفسه بلفظ التسبيح الصريح، وقد رأينا أن التسبيح فيها كان بمعنى تقديس الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه؛ فتزّه تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، ونزه نفسه عن اتخاذ الشريك، ونزه نفسه عن المثل والشبيه، وسمى سبحانه نفسه بأعظم الأسماء وأحسنها، ونبه سبحانه عباده على بعض مظاهر قدرته وعظمته وجبروته، وفي ذلك توجيه عظيم للعباد بأن يعظموا ربهم، ويسبحوه، ولا يغفلوا عن ذكره سبحانه طرفة عين.

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٥٤٨.

الكتاب العزيز^(١).

وبتأمل الآيات التي ورد فيها ذلك نستخرج منها الحقائق الآتية:

١. وظيفة الملائكة عبادة الله عز وجل وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه سبحانه.

فهم عباد لله، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وفي هذا إيصال لما افتراه المفترون من أن الملائكة بنات الله، أو أنهم شركاء لله عز وجل، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وقد صرحت الملائكة نفسها بذلك في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وتسبيح الملائكة لله بمعنى تعظيمه سبحانه، وتنزيهه عن كل سوء أو نقص، وقيل: تسبيح الملائكة: أي صلاتهم لله عز وجل، وقيل: تسبيحهم: أي التسبيح المعلوم، وهو قولهم سبحانه الله^(٢).

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل

في تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس: تسبيحهم: صلاتهم. وقيل: تسبيحهم: رفع الصوت بالذكر، قاله المفضل. وقال قتادة: تسبيحهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة. وهو الصحيح لما رواه أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده، سبحان الله ويحمده)^(٣)»^(٤).

٢. الملائكة يبدؤون حديثهم مع ربهم عز وجل بتسبيحه سبحانه.

وذلك من شدة تعظيمهم له، وعظيم تأديبهم معه سبحانه، فعندما علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها وقال لملائكته: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

ردت ملائكة الرحمن بأدب جم وتعظيم وإجلال للرب سبحانه: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

فبدأوا قولهم بتسبيح ربهم عز وجل، وفي ذلك تقديس وتنزيه لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، أو أن يعلم

(١) هذه المواضع هي: البقرة: ٣٠-٣٢، الأعراف: ٢٠٦، الرعد: ١٣، الأنبياء: ١٩-٢٠، سبأ: ٤٠-٤١، الصافات: ١٦٤-١٦٦، الزمر: ٧٥، غافر: ٧، فصلت: ٣٨، الشورى: ٥.

(٢) انظر جامع البيان، الطبري ٤٧٢/١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل سبحان الله ويحمده، رقم ٢٧٣١، ٤/٢٠٩٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/٢٧٦.

الملائكة شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى^(١).

ويوم القيامة يحشر الله عز وجل الخلق جميعاً، ويقول لملائكته: ﴿أَهْتَوَلَاءَ إِنَّا لَهُمْ **كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾ [سبأ: ٤٠].

فيكون جوابهم لربهم مبتدءاً بالتسبيح له سبحانه: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**﴾ [سبأ: ٤١].

فالملائكة بدأت كلامها بتزويه الله عز وجل عن الشرك أو الند، ثم تبرات مما افتراه المشركون من عبادتهم من دون الله عز وجل، ثم أقرت الملائكة لربها بأنهم مفتقرون إلى ولايته، مضطرون إليها، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ أم كيف يصلح لأن يتخذوا من دون الله أولياء وشركاء؟ فما هم إلا عباد لله منقادون مطيعون له سبحانه^(٢).

٣. الملائكة تسبح ربها عز وجل تسبيحاً دائماً متواصلاً من غير انقطاع ولا فتور ولا سامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فقله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٩٣/١، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير ٣٥٠/١.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٨٨/٣، تيسير

الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.

يعني بهم الملائكة^(٣).

وقد وصفهم الله عز وجل في الآية بثلاثة أوصاف: أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبحونه، وأنهم يسجدون له، وهذه الأوصاف الثلاثة دالة على كمال عبوديتهم لله تعالى؛ حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقلوية والبدنية؛ فعدم استكبارهم عبادة قلبية نشأ عنها العبادة القلوية والبدنية^(٤).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(٥) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة -زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة ربهم عز وجل- ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون^(٦)، ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ لأن من يحب أمراً ولا يتعب منه، لا يتركه ولا يمل منه؛ بل يواظب عليه^(٦).

ونظير هذا أيضاً في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٥٧/١٣.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤٥٠/٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٩٦/٩.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٦/١٧.

يَسْتَمُونَ ﴿[فصلت: ٣٨].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَافِيَتٌ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴿١﴾، أي في ذلك اليوم العظيم ترى الملائكة محدقين محيطين بالعرش ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، أي: يمجّدونه ويعظمونه ويقدّسونه، وينزهونه عن الظلم والجور، وعن كل ما لا يليق بجلاله، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: قضى بين الخلائق بالعدل، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه لله رب العالمين، عقب قضائه سبحانه بالحق بين خلقه (٢).

أما الموضع الآخر: فهو قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

حيث بينت الآية الكريمة تسبيح صنفين من ملائكة الرحمن: من يحملون العرش، ومن يطوفون حول العرش، ثم أخبرت الآية الكريمة بثلاثة أمور عن هؤلاء الملائكة العظام:

الأمر الأول: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وهذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله عز وجل، وخصوصاً التسبيح والتحميد (٣).

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١٣٤/٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦٣/١٢.

(٣) انظر: تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

فهذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم مستغرقون دائماً في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالي منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمة الله عز وجل وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته (١).

٤. لقد أخبر القرآن الكريم عن تسبيح الملائكة على العموم، وأخبر كذلك عن تسبيح حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة على الخصوص.

وذلك في موضعين منه.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَتٌ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، ووفيت كل نفس ما عملت، ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار، فقله تعالى: ﴿وَتَرَى

(١) انظر: تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.

والأمر الثاني: أنهم ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: «يقرون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته»^(١).

والأمر الثالث: أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، وأقرب مثل إقرار الملائكة من توحيد الله عز وجل والبراءة من كل معبود سواه^(٢).

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم؛ إذ اختارهم الله عز وجل لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه عز وجل^(٣).

٥. الملائكة تمدح نفسها بتسبيحها لربها عز وجل؛ إظهاراً لعبوديتها له سبحانه، وإخباراً بفضله وامتنانه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والشاهد من الآية هنا: قول الملائكة مقرين بتسبيحهم لله عز وجل، مادحين أنفسهم بذلك: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ننزهك ونبرئك مما يصفك المشركون مما لا يليق بك^(٤).

وفي سورة الصافات^(٥) تمدحت الملائكة بتسبيحها لله عز وجل: ﴿وَلَا نَحْنُ الضَّالُّونَ﴾^(٦) [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

قال قتادة: «هذا قول الملائكة يشنون بمكانهم من العبادة»^(٦).

وقال ابن كثير في قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿وَلَا نَحْنُ الضَّالُّونَ﴾: «أي نصطف، فنسبح الرب، ونمجده ونقدسه، وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه»^(٧).

٦. وصف الله عز وجل حال الملائكة في تسبيحهم له سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

فالملائكة تسبح ربها عز وجل من خيفته؛ ومن هنا: للتعليل، وخيفته يعني:

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٣٤٤.

(٥) ذكر المفسرون أن المراد بالصافات الملائكة الصافات لربها في السماء.

انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/٥٥٧.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/١٢٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم ١٢/٨٠٠.

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٣٥٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/٩٠٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر، وأكملهم علمًا وعقلًا وخلقًا، وأعظمهم عبادة وتسبيحًا وتقديسًا لله عز وجل؛ اعتقادًا وقولًا وعملاً؛ لأن الله عز وجل قد اصطفاهم على الناس برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح بعض أنبيائه، وذلك في سياق ما قصه سبحانه من قصصهم وأخبارهم، فقد ذكر الله عز وجل تسبيح يونس عليه السلام، وتسبيح موسى عليه السلام، وتسبيح داود عليه السلام، وتسبيح زكريا عليه السلام، وتسبيح عيسى عليه السلام، وتسبيح محمد صلى الله عليه وسلم، وسنقف بإذن الله مع الآيات التي ورد فيها ذلك فيما يأتي:

أولاً: تسبيح يونس عليه السلام.

قص الله عز وجل في غير موضع من كتابه العزيز جوانب من قصة يونس عليه السلام، ويونس عليه السلام قد بعثه الله عز وجل إلى أهل قرية نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم يتضرعون

هيئته وإجلاله ورهبته^(١).

وعلى هذا فلا يظن ظانٌ من وصف الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس النفس^(٢) أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، فهذا الظن بعيد غير صحيح؛ إذ الملائكة يسبحون الله خاشعين له، خائفين منه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يخافون الله، وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه، ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء»^(٣).

٧. إذا علم المؤمن بتسبيح الملائكة لربها عز وجل كما أخبر سبحانه، فينبغي له أن يقتدي بهم في ذلك.

فيكثر من تسبيح ربه عز وجل بالليل والنهار على قدر طاقته؛ فإن إخبار الله عز وجل عن تسبيحهم فيه حثٌ للمؤمنين، وترغيبٌ لهم أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم^(٤).

ثانيًا: تسبيح الأنبياء عليهم السلام:

- (١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣٦٦/٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠٤/١٣.
- (٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على كعب الأحبار، ١٥٨، ٣١٧/١، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٩٧/٩.
- (٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣١٤/٤.
- (٤) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ٢٩٢/١.

إلى الله عز وجل، فرفع الله عنهم العذاب. وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، فأبوا أن يلقيه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فقام عليه السلام وألقى بنفسه في اليم، فالتقمه الحوت، وغاص به في ظلمات البحار^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَأَن يُونُسَ لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣) إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٦﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٧﴾ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

لقد أخبر الله عز وجل أن عبده ونبيه يونس عليه السلام بادر -وهو في تلك الظلمات- إلى مناداة ربه عز وجل، وتسييحه وتوحيده، واعترف بظلمه لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَذَا التُّورِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وبهذا الدعاء العظيم، الذي فيه إقرار لله تعالى بكمال الألوهية، وتنزيهه عن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٤٣٤.

كل نقص وعيب، واعترف بظلم النفس وجناتها، كان الفرج من الله عز وجل^(٢)، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

لقد كان تسييح يونس عليه السلام لربه عز وجل سببًا لتفريج كربته وزوال شدته، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٧) لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

وللمفسرين ثلاثة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾:

أولها: من المصلين، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.
والثاني: من العابدين، قاله مجاهد ووهب بن منبه.

والثالث: قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قاله الحسن^(٣).

أما الزمن الذي كان فيه هذا التسييح فقد قال بعض المفسرين: إنه عليه السلام كان من المسيحين قبل أن يلتقمه الحوت.

وقال آخرون: إنه كان من المسيحين وهو في بطن الحوت^(٤)، ولا خلاف بين القولين؛ فإن نبي الله يونس عليه السلام

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٨٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٠٨.

شيء قط إلا استجاب الله له) (٣).

ثانيًا: تسبيح موسى عليه السلام.
ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونيبه
وكليمه موسى عليه السلام في موضعين من
كتابه العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ
مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ففي هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام
طمع في رؤية ربه عز وجل حين كلمه من
وراء حجاب، ولم يعنفه الله عز وجل على
ذلك؛ لأنه سأل ما يجوز (٤)؛ ولكن الله عز
وجل أراد أن يري موسى عليه السلام من
كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة
البشرية في هذه الدار الدنيا لا تثبت لرؤيته
ومشاهدته عيانًا، ولهذا قال له: ﴿لَنْ نَرِنِّي
وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ نَرِنِّي﴾، يعني أن الجبل -رغم صلابته

كان -ولاشك- من المسبحين قبل التقام
الحوت له، فهو نبي من أنبياء الله، وهم خير
خلق الله عز وجل، وخير من سبحه سبحانه.
وأما كونه من المسبحين في بطن الحوت
فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي
الْظُلُمِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والخلاصة: أن تسبيح يونس عليه السلام
كان سببًا في تفريج كربته، وفي ذلك موعظة
وفائدة للعباد جميعًا بأن التسبيح سبب
لتفريج الكرب وزوال الشدائد (١).

فقد قال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا
لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ففي الآية بشارة لكل مؤمن يقتدي بيونس
عليه السلام في إخلاصه وصدق توبته،
ودعائه لربه، بأن الله عز وجل ينجيه من
كربه، ويخلصه من همه (٢).

وقد جاء هذا المعنى في حديث النبي
صلى الله عليه وسلم إذ قال: (دعوة ذي
النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات،
باب رقم ٨٢، ٤٨٤/٥، رقم ٣٥٠٥، عن
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع
رقم ٣٣٨٣.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٧٥.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص
٥٢٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي
٣٣٤/١١، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٤٥.

وعظمته - لا يستقر مكانه إذا تجلى الله عز وجل له، فكيف بالإنسان الضعيف؟! (١).

وقد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكاً عندما تجلى له ربه سبحانه، وسقط موسى عليه السلام مغشياً عليه من هول ما رأى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (٢).

ولما أفاق موسى عليه السلام من غشيته كان أول ما نطق به تسبيح الله عز وجل ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، سبح ربه في هذا الموقف الجليل الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه وجلاله ما يستدعي التسبيح؛ تعظيماً لله عز وجل، وتنزيهاً له عما لا يليق بكماله وعظمته سبحانه، ومن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عياناً في هذه الحياة الفانية.

ولهذا أتبع التسبيح بقوله: ﴿ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات، وقيل: المراد أول المؤمنين من بني إسرائيل بما توحىه إلى (٣).

أما الموضوع الثاني: فهو قول الله تعالى

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٠٤.

على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢١) ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ (٢٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٢١) ﴿وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٢٢) ﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٣) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٢٥) [طه: ٢٩ - ٣٥].

ففي الآيات بيان أن موسى عليه السلام طلب من الله تعالى أن يجعل له من أخيه هارون معيناً على تبليغ الرسالة وتحمل أعبائها، يتقوى به ظهره، وذلك بأن يكون معه نبياً مرسلًا من الله عز وجل، وعلل موسى عليه السلام طلبه هذا بقوله: ﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٣) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٢٥)، حيث علم موسى عليه السلام أن مدار العبادات كلها والدين كله على ذكر الله عز وجل وتسبيحه؛ فسأل الله أن يجعل أخاه معه يساعده ويعاونه على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتلهيل وغيره من أنواع العبادات (٤).

ثالثاً: تسبيح داود عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه داود عليه السلام من خلال ذكر تسبيح الجبال والطير معه، وقد جاء ذلك في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع وهي:

١. قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٣٤٦.

[الأنبياء: ٧٩].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّاسُ لَهُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١٠].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ إِذْ أَلَيْنَا لَهُ أَزْوَاجَ طُيُورٍ مِّنْ لَّدُنَّا وَلَهُ الْوَيْسُ وَالْإِشْرَاقُ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

فهذه الآيات الثلاث بينت تسبيح نبي الله داود عليه السلام، حيث كان عليه السلام إذا سبّح الله تعالى وأثنى عليه، سبّحت بتسبيحه الجبال والطير، وجاوبته بالذكر والثناء على الله تبارك وتعالى^(١).

وقد ذكر المفسرون أن الله عز وجل منح نبيه داود عليه السلام من الصوت الحسن العظيم، الذي كان إذا سبّح به تسبّح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، تسبيحاً معه لله رب العالمين^(٢).

رابعاً: تسبيح زكريا عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه زكريا عليه السلام، وجاء ذلك في سياق ذكر قصته عليه السلام حينما طلب من الله عز وجل أن

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٤٣٤/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣١٩/١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٦١/١١.

يهب له ذرية طيبة، فاستجاب الله عز وجل دعاءه، وبشره بالولد على لسان الملائكة، وحينها طلب زكريا من ربه أن يجعل له علامة يستدل بها على حصول الولد، فجعل الله عز وجل له علامة ذلك أن ينحسب لسانه عن الكلام مع الناس من غير آفة أو مرض، فلا يستطيع النطق إلا رمزاً وإشارة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذْكُر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولقد أمره الله عز وجل بكثرة التسبيح والذكر في هذه الحال، فرغم أن لسانه في هذه الحال ممنوع من كلام الناس؛ إلا أنه لم يكن ممنوعاً من التسبيح والتهليل وذكر الله عز وجل، فعكف زكريا عليه السلام في محرابه وقد اطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامثل أمر الله عز وجل له بكثرة الذكر، والتسبيح، والصلاة والعبادة^(٣).

ولم يكتف زكريا بأن يسبّح وحده لله عز وجل؛ بل خرج على قومه وأمرهم -بالإشارة- بتسبيح الله عز وجل؛ مزيداً من شكر الله عز وجل على ما بشر به من نعمة الولد^(٤)، قال تعالى عن نبيه زكريا: ﴿قَالَ

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٢٠/٩.

رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
الْنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَفَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
مِنَ الْعَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ [مريم: ١٠ - ١١].

وفي هذا بيان لعظم تسبيح نبي الله زكريا
عليه السلام لربه عز وجل، وفيه بيان أن
التسبيح من أجل العبادات التي يشكر بها
العبد ربه عز وجل على ما أولاه من نعم.

خامساً: تسبيح عيسى عليه السلام.
ورد في القرآن الكريم تسبيح عبد الله
ورسوله عيسى عليه السلام لربه عز وجل،
وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْىَ إِلَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ
مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ ثَلَاثُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ
مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُهُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ [المائدة: ١١٦].

ويكون هذا يوم القيامة، يوم يجمع الله
الرسل ويسألهم ماذا أجبتهم؟ ويسأل عيسى
بمفرده توبيخاً للنصارى -الذين اتخذوه
إلهًا- على شركهم، فيقول الله عز وجل هذا
لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عليه السلام من
شركهم ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله عز
وجل عن ذلك بالتسبيح له سبحانه (١).

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب
العزة سبحانه بالتسبيح -قبل أن يبرأ نفسه-

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٢.

تنزيهاً له سبحانه عما افتراه المفترون،
وتعظيماً له وإجلالاً، وثناءً عليه، وخضوعاً
له وخوفاً منه، وهذا التسبيح من عيسى
عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال
للناس شيئاً من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله
عز وجل عن ذلك فلا جرم أنه لم يأمر أحداً
به (٢).

سادساً: تسبيح النبي محمد صلى
الله عليه وسلم.

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء
والمرسلين وسيدهم، وهو أعظم من نزه الله
وسبحه من الخلائق، ولقد ورد في كتاب
الله عز وجل كثير من الآيات التي جاء فيها
ذكر تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم (٣).

والملاحظ أنه في كل هذه الآيات كان
الأمر موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم
بتسبيح ربه عز وجل، ويتأمل هذه الآيات
نقف على بعض الحقائق المستفادة من
تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك
فيما يأتي:

١. جميع الآيات التي ورد فيها أمر النبي
صلى الله عليه وسلم بالتسبيح هي آيات

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١١٣.

(٣) من هذه الآيات: الحجر: ٩٨، طه: ١٣٠،
الفرقان: ٥٨، غافر: ٥٥، ق: ٣٩-٤٠،
الواقعة: ٩٦، الإنسان: ٢٦، الأعلى: ١،
النصر: ٦.

الصبر، وأن في ملازمة التسبيح كشفًا للضيق، وتسلية عند الشدائد، ولعل ذلك مفسرٌ لكثرة ورود الأمر بالتسبيح في القرآن المكي، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض في مكة لأذى المشركين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى) (٢). والصلاة فيها تسبيح لله تعالى بالقول والفعل.

٤. قرن الله عز وجل الأمر بالتسبيح مع الأمر بالتوكل عليه سبحانه. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ يَتُوبُ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]. وفي ذلك بيان أن التسبيح فيه العون الكبير للعبد على الثبات والصبر (٣).

٥. التسبيح شكر لله عز وجل على نعمه العظيمة. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ قَوَّامًا﴾ [النصر: ١ - ٣]. فلقد أمر

مكية، ما عدا آية سورة الإنسان (١)، وآية سور النصر.

٢. أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح؛ في الليل والنهار. قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وفي ذلك بيان لعظيم عبادة التسبيح عند الله عز وجل، وحثٌ للمؤمنين بمداومة التسبيح لربهم سبحانه.

٣. كثيرًا ما يقرن الأمر بالتسبيح مع الأمر بالصبر، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

ويفهم من ذلك أن التسبيح معينٌ على

(١) سورة الإنسان مدنية عند جمهور المفسرين، ومكية عند بعضهم.

انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/٤٢٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/١١٨.

(٢) ورد ذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود في سنته، كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم ١٣٢١، ١/٥٠٧.

والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/٢٤٥، رقم ١١٧١.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/٢١٣.

وأول هذه الآيات - من حيث ترتيب المصحف الشريف - قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قَوْمًا عَذَابُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ففي هاتين الآيتين أخبر الله عز وجل عن آياته العظيمة، ودلائل قدرته الباهرة؛ من خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك كله من آيات عجيبة، تبهر الناظرين، وتقنع المتفكرين، وتجذب أفئدة الصادقين، ففي هذا الكون من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، والمنافع للخلق، ما يدل على عظمة خالقه، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته، وعظيم حكمته، وسعة رحمته، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره^(٢).

هذه الآيات التي بثها الله عز وجل في السماوات والأرض إنما يعقلها أولوا الألباب والنهى، الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان، فأبصرت حقيقة الأشياء، إنهم المؤمنون الموقنون، الذين يتفكرون

الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح والتحميد لله عز وجل مع مداومة الاستغفار؛ شكرًا له سبحانه على نعمة النصر والفتح المبين، قال الدكتور وهبة الزحيلي: «أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً: ثم بالحمد ثم بالاستغفار؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس، والسورة تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته من شكر نعمة النصر والفتح»^(١).

ثالثًا: تسبيح المؤمنين:

تسبيح الله عز وجل من هدي أصفياء الله المرسلين، ودأب عباد الله المؤمنين، وشغل أوليائه المتقين، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح عباده المؤمنين له سبحانه، وذلك في عدد من الآيات التي مدحت المسبحين، والتي أمرت المؤمنين بالمدادمة على التسبيح.

أولاً: مدح المسبحين من المؤمنين: جاءت عدة آيات في كتاب الله عز وجل تمدح المؤمنين الذين يسبحون الله عز وجل.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦١.

(١) التفسير المنير ٣٠/ ٤٥٢.

وسلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿إِٰمِنُوا بِهٖٓ أَوْ لَا تُوْمِنُوْا﴾، وهذا على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير.

والمعنى: سواء آمتتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فهو حق في نفسه، أنزله الله عز وجل، وإن إيمانكم لا يزيده كمالاً، وتكذيبكم به لا يلحق به نقصاً.

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٖٓ إِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ يَخِرُّوْنَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾، أي: إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة من قبل القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي من مؤمني أهل الكتاب إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون سجداً تعظيماً له وتكريماً، وعلماً منهم بأنه من عند الله عز وجل^(٢).

ثم ذكر الله عز وجل تسبيحهم له مادحاً لهم فقال: ﴿وَيَقُوْلُوْنَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا اِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُوْلًا﴾، أي أنهم عندما يخرون سجداً لسماع القرآن، يسبحون ربهم عز وجل في سجودهم؛ تسبيح تنزيه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن، وتعظيم وتبجيل لله عز وجل على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء السابقين المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا: ﴿اِنْ كَانَ

في خلق الله عز وجل، ويقفون على آياته؛ فيزيدهم ذلك إيماناً على إيمانهم، فتخشع قلوبهم، وتنشط ألسنتهم بذكر ربهم وتسبيحه في كل أحوالهم، ويديمون التفكير والنظر في عظيم خلق الله عز وجل، ولسان حالهم ومقالهم يقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطٰلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي: لم تخلق يا ربنا هذا الخلق عبثاً ولا لعباً، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم؛ من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة، فأنت سبحانه منزّه عن اللعب والعبث، ومنزه عن كل نقص أو عيب، لا يكون خلقك إلا لحكم عظيمة^(١).

لقد مدح الله عز وجل المؤمنين المتفكرين في آياته، المسبحين له على الدوام، الذين دفعهم تفكرهم وتسبيحهم إلى الرغبة في ثواب ربهم عز وجل، والنجاة من عذابه ﴿سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

والموضع الثاني الذي مدح فيه الله عز وجل عباده المؤمنين المسبحين هو قوله تعالى: ﴿قُلْ ءٰمِنُوْا بِهٖٓ أَوْ لَا تُوْمِنُوْا اِنَّ الَّذِيْنَ اُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٖٓ إِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ يَخِرُّوْنَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٧ وَيَقُوْلُوْنَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا اِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُوْلًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله عز وجل عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب، وابتدأ الله عز وجل في فيهما بأمر النبي صلى الله عليه

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٦.

وَعَدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١﴾.

ومن الآيات التي ورد فيها مدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين له سبحانه قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ ﴿٣٨﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَارُ ۖ ﴿٣٩﴾ لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

ففي هذه الآية مدح لأولئك المسبحين لربهم عز وجل، الذين لم تلههم الدنيا وما فيها من تجارة وبيع ومتاع عن عبادة ربهم، وعن صلاتهم، وزكاتهم، وتسبيحهم، وقد وعدهم الله عز وجل بحسن الجزاء وعظيم الثواب، مع الزيادة بغير حساب؛ لأنهم قدموا طاعته ورضاه على كل ما سواه.

وفي قول الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ﴾ مدح لهم، وإشعار بهمتهم العالية، وعزيمتهم الصادقة، التي بها صاروا عمارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ^(١).

وفي سورة السجدة مدح آخر للمؤمنين الساجدين لله، المسبحين له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

فلقد أثنى الله عز وجل على هؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنى بسجودهم عند التذكير والوعظ بآياته، وبتسبيحهم لربهم، وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفار من الإعراض عند التذكير، وإظهار التكبر ^(٣).

ولقد وعد الله عز وجل أولئك المؤمنين المسبحين ربهم عز وجل، والذين ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وعدهم بعظيم المثوبة والجزاء، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وبمدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين نعلم علم اليقين مدى عظم التسبيح، ومدى محبة الله عز وجل لعباده المسبحين له على الدوام، ونعلم أن التسبيح عبادة جليلة، ترفع مقامات العبد عند ربه عز وجل، وهذا كله يدفع العباد الصادقين إلى الحرص الشديد على ملازمة تسبيح الله عز وجل في كل الأوقات، وعلى كل الأحوال. ثانيًا: أمر المؤمنين بالمداومة على تسبيح الله عز وجل:

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٥٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٦١.

ومن الآيات التي ورد فيها أمر المؤمنين بالتسبيح في كل الأوقات قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين بين الله عز وجل الوظيفة التي كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أن يكون صلى الله عليه وسلم شاهداً على الناس؛ شاهداً بالإيمان لمن آمن منهم، وشاهداً بالكفر لمن كفر منهم، بعد أن بلغهم رسالة ربه تبليغاً تاماً كاملاً، ومن مهمته أيضاً تبشير المؤمنين برضا الله عز وجل، وبما أعد الله لهم من النعيم المقيم، ومن مهمته أيضاً: أن يكون نذيراً للكافرين وللعصاة بسوء المصير، إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

ثم بين الله عز وجل الحكمة من إرسال النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: لتؤمنوا بالله سبحانه وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وتعزروا الرسول صلى الله عليه وسلم وتوقروه، أي: تعظموه، وتفخموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه صلى الله عليه وسلم، ولتسبحوا الله عز وجل بكرة وأصيلًا، أي تنزهوه سبحانه وتصلوا له، وتديموا ذكره

يسبحوه بكرة وأصيلًا، في الصباح والمساء، في الشدة والرخاء، في كل أوقاتهم، وعلى كل أحوالهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (١١) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

يأمرهم سبحانه أن يذكروه ذكرًا كثيرًا؛ من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قرينة إلى الله سبحانه وتعالى، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، وعلى جميع الأحوال؛ فإن ذكر الله عبادة عظيمة، يفوز بها العبد برضوان ربه عز وجل، وينال محبته، ويفوز بأعلى الدرجات في جنته، وذكر يعين العبد على الخير، ويعينه على كف لسانه عن الكلام القبيح (١).

ولقد أردف الله عز وجل الأمر بالإكثار من ذكره بالأمر بتسبيحه، مع أن التسبيح داخل في الذكر، وفي ذلك بيان لشرف التسبيح وعظمه عند الله عز وجل.

قال الزمخشري: « والتسبيح من جملة الذكر؛ وإنما اختصه من بين أنواعه لبيان فضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه تنزيه الله عز وجل عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال » (٢).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٧.

(٢) الكشاف ٥/ ٧٧.

وتسبيحه، في أول النهار وآخره^(١).

قال السعدي: «ذكر الله عز وجل في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، وذكر الحق المختص بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو التعزير والتوقير، وذكر الحق المختص بالله عز وجل، وهو التسبيح له والتقديس بالصلاة وغيرها»^(٢).

وهناك آيتان في كتاب الله عز وجل أمر الله سبحانه فيهما عبادة المؤمنين بأن يسبحوه في حالات مخصوصة -زيادة على التسبيح العام في كل حال-، والآيتان هما: الآية الأولى: قوله تعالى في سياق الحديث عن حادثة الإفك: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في هذه الآية بأن يحسنوا الظن بإخوانهم عند سماع شيء يطعن في أعراضهم، وأن لا يخوضوا في حديث ينتهك أعراض إخوانهم من غير بيّنة أو دليل، وبين لهم سبحانه أنه كان الواجب عليهم عند سماع خبر الإفك في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكذبوه ويكذبوا قائله، وأن يبادروا إلى تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه من

هذا البهتان العظيم^(٣).

قال القرطبي: «الآية عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان»^(٤).

وفي الآية: إرشاد حكيم من رب العزة سبحانه لعباده المؤمنين؛ بأن يسبحوه عند سماع مثل هذه الأخبار المكذوبة التي تطعن في عرض النبي صلى الله عليه وسلم، أو عرض المؤمنين الصالحين، ومناسبة التسبيح في مثل هذه الحالة: تنزيه الله عز وجل من أن يقال مثل هذا الكلام في نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو في نساء صالحي المؤمنين، ولييان التعجب من تجرؤ الخائضين في مثل هذا الإفك والبهتان العظيم^(٥).

الآية الثانية: قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمِ الْفَلَاحَ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ﴾^(٦) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧﴾

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٥٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٢٠٥.

(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٢٢، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير ١٠ / ١٩٥.

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٣ / ٢٦٥.

(٢) تفسير الكريم الرحمن ص ٧٩٢.

[الزخرف: ١٢ - ١٣].

اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء؛ إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدل ضمناً على إثبات الكمالات لله عز وجل^(٣).

وفهم من هذه الآية أن التسبيح من أعظم ألفاظ الشكر لله عز وجل؛ فإذا ما تلبس عبد بنعمة من نعم الله عز وجل فشر بها في قلبه، فلينطلق لسانه بتسبيح ربه تنزيهاً له وتعظيماً، شكراً على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ولعظم تسبيح الله عز وجل فإنه سيكون دعاء أهل الجنة وهم منعمون فيها، فتسبيح المؤمنين لربهم عز وجل لا ينتهي بانتهاء الدنيا؛ بل يبقى معهم في دار الخلد والنعيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِّكْرَ أََمْْثَرُ وَأَعْمَلُوا

الصَّالِحَاتِ يَبْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝

[يونس: ٩ - ١٠].

قال السعدي: «عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكَل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به

ففي هاتين الآيتين: يذكر الله عز وجل عباده ببعض نعمه عليهم؛ من تسخير الفلك التي تحملهم في البحار بما ينفعهم، وتسخير الدواب والأنعام ليأكلوا منها ويركبوا على ظهورها، وأمرهم سبحانه بأن يذكروا هذه النعم العظيمة عليهم، ويسبحوا ربهم عز وجل؛ شكراً على هذه النعم، وذلك حين التلبس بمنافعها والاستواء على ظهورها^(١).

فقوله عز وجل: ﴿لِاسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ توطئة وتمهيد إلى ذكر نعمة الله عز وجل في قوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي حيثئذ؛ فإن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها، وأجدر بعدم الدهول عنها، أي جعل لكم ذلك نعمة منه سبحانه لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا: هو التذكر بالفكر، لا الذكر باللسان فقط.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ليكون إعلاناً للشكر باللسان بعد الشكر في النفس والقلب، فلقننا الله عز وجل صيغة شكره سبحانه، كما لقننا صيغة الحمد في سورة الفاتحة^(٢).

قال ابن عاشور: «وافتح هذا الشكر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٠١/١٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧٤/٢٥.

(٣) المصدر السابق ١٧٤/٢٥.

الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة^(١).

رابعاً: تسبيح المخلوقات كلها لله عز وجل:

لقد أسند الله عز وجل في كتابه العزيز التسبيح إلى أصناف مخلوقاته جميعاً؛ من الحيوانات، والنباتات، والجمادات، العاقلة منها وغير العاقلة، والناطقة وغير الناطقة، وكل شيء مما خلق الله عز وجل في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بعلمها، ولا يعلم عددها إلا الله عز وجل الذي خلقها، والذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

ففي كتاب الله عز وجل نحو إحدى عشرة آية من عشر سور^(٢) أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات الله عز وجل؛ من هذه الآيات ما أسند فيها التسبيح إلى المخلوقات مجملة، ومنها ما أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات معينة.

أولاً: الآيات التي أسند فيها التسبيح لجميع المخلوقات:

الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى جميع المخلوقات هي ثماني آيات:

أولها: قول الله تعالى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبر سبحانه بأن السماوات والأرض وجميع مخلوقاته تنزهه سبحانه، وتمجده، وتسبحه بلسان الحال والمقال؛ فما من شيء من خلق الله عز وجل إلا ويسبح بحمده؛ ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إلا ما كان تسبيحه بمثل ألسنتكم^(٣).

يقول محمد طنطاوي في تفسير هذه الآية: «بين الله سبحانه أن جميع الكائنات تسبح بحمده، فقال تعالى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي تنزه الله تعالى وتمجده السموات السبع، والأرض، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك، وما من شيء من مخلوقاته التي لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه سبحانه؛ ولكن أنتم يا بني آدم لا تفقهون تسبيحهم؛ لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، وإنما الذي يعلم تسبيحهم هو

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/٤٥٦، تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٨.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٥٨.

(٢) هذه السور هي: الرعد: ١٣، والإسراء: ٤٤، والأنبياء: ٧٩، والنور: ٤١، وص: ١٨، والحديد: ١، والحشر: ٢٤، والصف: ١، والجمعة: ١، والتغابن: ١.

كل مصلى ومسيح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، والتوجيه الآخر: أن يكون الضمير عائداً على قوله: ﴿كُلُّ﴾ فيكون المعنى: قد علم كل مصلى ومسيح منهم صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كلفه الله به وألزمه إياه^(٣).

أما الآيات الأخرى التي يخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه، فهي فواتح كل من السور التالية: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، ففي سورة الحديد والحشر والصف جاء الإخبار بصيغة الفعل الماضي.

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

وقال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وقال عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

أما في سورتي الجمعة والتغابن فقد جاء الإخبار بصيغة الفعل المضارع.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١].

وقال عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

خالقهم عز وجل.

والمتدبر في هذه الآية الكريمة يراها تبعث في النفوس الخشية والرهبة من الخالق عز وجل؛ لأنها تصرح تصريحاً بليغاً بأن كل جماد وكل حيوان وكل طير وكل حشرة.. بل كل كائن في هذا الوجود يسبح بحمد الله عز وجل، وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله، وإخلاص العبادة له، ومداومة ذكره؛ حتى لا يكون -وهو الذي كرمه ربه وفضله- أقل من غيره طاعة لله تعالى^(١).

أما الآية الثانية التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه فهي قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّوْنَ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له، ويمجده، ويقدسه، ويصلي له، ويوحده سبحانه»^(٢).

ومعنى قول الله عز وجل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يحتمل توجيهين: الأول: أن يكون الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عائداً على الله عز وجل، فيكون معنى الكلام:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٠.

(١) الوسيط ٨/ ٣٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٥٣٩.

قول الله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر بعض أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فأخبر سبحانه بأنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ لجميع المخلوقات، المنشئ لها من العدم، ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي مصور المخلوقات ومركبها على هيئات مختلفة، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له سبحانه الأسماء الكثيرة العظيمة، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا هو سبحانه، وكلها حسنى تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسناتها: أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها، ومن كماله سبحانه وكمال أسمائه وصفاته أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيء إلا لحكمة عظيمة^(٤).

وقد وجه المفسرون الحكمة من إخبار الله عز وجل عن تسبيح مخلوقاته بالفعل الماضي تارة، وبالفعل المضارع تارة أخرى؛ بأن الفعل الماضي فيه دلالة على أن تنزيه المخلوقات وتسييحهم لله عز وجل أمرٌ مقرر، أمر الله عز وجل به خلقه وعباده من قبل، وأمر به الناس، فالمخلوقات مسبحة لله عز وجل أبداً في الماضي، وستظل مسبحة له سبحانه في المستقبل^(١).

أما الفعل المضارع فيدل -كما هو معلوم عند أهل اللغة- على الدوام والاستمرار والتجدد، وفي ذلك بيان بأن أهل السماوات والأرض والمخلوقات كلها يجددون تسييحهم لله عز وجل، وهم مستمررون فيه، لا يفتررون عنه أبداً^(٢).

قال الشوكاني: «وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً، وفي بعضها مضارعاً، وفي بعضها أمراً؛ للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات، لا يختص تسييحها بوقت دون وقت؛ بل هي مسبحة أبداً في الماضي، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل»^(٣).

ويبقى آية أخيرة أخبر الله عز وجل فيها عن تسبيح جميع خلقه له سبحانه، وهي الآية التي ختمت بها سورة الحشر، وهي

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥٧.

(٣) فتح القدير ٥/ ٢٣٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

وجل مع نبي الله داود عليه السلام؛ وذلك أن داود عليه السلام كان من أعبد الناس، وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتمجيداً، وكان قد أعطاه الله عز وجل من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبّح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، فهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٢).

قال القرطبي: «قال وهب: كان داود عليه السلام يمر بالجبال مسبحاً والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاقي؛ ولهذا قال: ﴿وَسَخَرْنَا﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. وقال قتادة: ﴿يُسَبِّحُنَّ﴾ يصلين معه إذا صلى، والتسبيح: الصلاة، وكلّ محتمل، وذلك فعل الله تعالى بها»^(٣). والآية الثالثة: يخبر فيها ربنا عز وجل أيضاً عن تسبيح الجبال والطيور مع نبيه داود عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ^(١٨) وَالطَّيْرُ مَحْسُورَةٌ كُلٌّ لِّمَنَّا أَوَّابٌ ﴿[ص: ١٧ - ١٩].

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣١٩/١١.

ثانياً: الآيات التي أسند فيها التسبيح لمخلوقات معينة:

أخبر الله عز وجل عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، والآيات التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن ذلك ثلاث آيات:

الآية الأولى: قول الله عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وللمفسرين قولان في المقصود بالرعد في هذه الآية:

أحدهما: أنه اسم الملك الذي يزجر السحاب، وصوته: تسبيحه.

والثاني: أنه الصوت المعهود، المسموع عند حدوث البرق.

والآية تحتمل المعنيين، وإنما خص الرعد بالتسبيح؛ لأنه من أعظم الأصوات^(١).

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ففي هذه الآية الكريمة أخبر سبحانه عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، حيث أخبر عن تسبيح الجبال والطيور لله عز وجل.

ص ٨٥٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٣١٧/٥.
(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣١٤/٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣٠٣/٣.

فهذه الآيات مثل آية الأنبياء؛ إلا أنه سبحانه ذكر هنا أن التسييح كان ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، والعشي: من وقت العصر إلى الليل، والإشراق: شروق الشمس إلى الضحى، وهذا يدل على كثرة تسييح نبي الله داود عليه السلام، وكثرة تسييح الجبال والطير معه^(١).

خامسًا: تسييح من عبدوا من دون الله عز وجل:

لقد عبد بعض الضلال من الناس مخلوقات لله عز وجل، بهتانًا وزورًا وافتراءً على الله، فمنهم من عبد نبي الله عيسى عليه السلام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد غير ذلك، وكل ذلك شرك وكفر يستحق من فعله الخلود في عذاب الله عز وجل.

ولقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن عيسى عليه السلام والملائكة الذين عبدوا من دون الله سيتبرؤون يوم القيامة مما فعله المبطلون، ومن شرك المشركين، وسيسبحون الله عز وجل وينزهونه عما افتراه المفترون، فعيسى عليه السلام ما دعا أحدًا إلى عبادته؛ وإنما دعا الناس لعبادة الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/١٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/٨١٥.

مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ ﴿١٣﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤﴾ [المائدة: ١١٦ -

١١٧].

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب العزة - سبحانه بالتسييح - قبل أن يبرأ نفسه - تنزيهاً له سبحانه عما افتراه المفترون، وتعظيمًا له وإجلالًا، وثناءً عليه، وخضوعًا له وخوفًا منه، وهذا التسييح من عيسى عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال للناس شيئًا من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله عز وجل عن ذلك فلا جرم أنه لم يأمر أحدًا به^(٢).

أما الملائكة الذين عبدهم الضلال من دون الله عز وجل، فقد أخبر الله عز وجل بأنهم سيتبرؤون يوم القيامة من عبادة أولئك المشركين لهم، وسيسبحون الله عز وجل تنزيهاً له عن شرك المشركين وافتراء الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْسِرُهُمْ وَهُمْ يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَمْ أَنْتُمْ مُضِلَّاتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَالُّوا السَّبِيلِ ﴿١٧﴾ قَالُوا

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/١١٣.

علم قدر ربه عن عبادة مولاه؛ فالكون كله خلق الله، والخلق كله قد سبىح لله، سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، سبحانه الله وبحمده، سبحانه الله العظيم.

سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ كَرَاهًا وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

وفي هذا تقرير لل كفار الذين عبدوا الملائكة من دون الله عز وجل.

وفي سورة سبأ آيات مماثلة لهذه الآيات، إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِيْنَّ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فالملائكة تقر لله عز وجل بأنه ليس للخلق كلهم أن يعبدوا أحدا سواه سبحانه، لا هم ولا غيرهم؛ وتسبح الملائكة ربها عز وجل يوم القيامة قائلين: ما دعونا هؤلاء الكفار إلى عبادتنا؛ فما يكون لنا ذلك؛ بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم؛ فما ينبغي لأحد أن يعبدنا؛ فإننا عبيد لك، فقراء إليك، وكذلك الخلق كلهم^(١).

وبعد هذا الاستعراض لتسبيح الخلائق كلها لله عز وجل -من الملائكة، والنبين، والمؤمنين، وسائر المخلوقات- نستشعر عظمة من سبىح له الخلق كله؛ فما استكبر مخلوق عن تسبيح خالقه، وما استنكف عبد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤٨/١٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٩١/١٠.

من صيغ التسبيح

من خلال تتبع الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل، نجد أن التسبيح فيها ورد بعدة صيغ؛ وذلك كما يأتي:

أولاً: التسبيح بصيغة: (سبحان) مضافاً إليها هاء الضمير العائد إلى الله عز وجل (سبحانه).

وهذه الصيغة هي أكثر صيغ التسبيح وروداً في كتاب الله عز وجل؛ حيث إنها وردت في أربع عشرة آية^(١).

وبتتبع هذه الآيات التي ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة نجد أنها كلها جاءت في سياق تسبيح الله عز وجل لنفسه العلية؛ فمن هذه الآيات -على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَدِثُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

(١) وردت هذه الصيغة من صيغ التسبيح في المواضع التالية من كتاب الله عز وجل: البقرة: ١١٦، والنساء: ١٧١، والأنعام: ١٠٠، والتوبة: ٣١، ويونس: ٦٨، والنحل: ١، هود: ٥٧، والإسراء: ٤٣، ومريم: ٣٥، والأنبياء: ٢٦، والروم: ٤٠، والزمر: ٤، ٦٧.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

والملاحظ أيضاً أن كل هذه الآيات قد وردت: إما في سياق تنزيه الله عز وجل نفسه عما افتراه المفترون من اتخاذ الولد، أو في سياق تنزيهه سبحانه لنفسه عما نسبه المشركون إليه سبحانه من اتخاذ الشريك، وإما في سياق تعظيم الله عز وجل لنفسه، وبيان بعض مظاهر آيات قدرته وملكه، وامتنانه سبحانه على عباده بما يوجب الشكر والثناء له سبحانه، بتنزيهه وتسييحه وتمجيده.

ثانياً: التسبيح بصيغة (سبحان) مضافاً إليها كاف المخاطب (سبحانك).

التسبيح بصيغة (سبحانك) ورد في كتاب الله عز وجل في تسع آيات^(٢).

(٢) هذه الآيات هي: البقرة: ٣٢، آل عمران: ١٩١، المائدة: ١١٦، الأعراف: ١٤٣، يونس: ١٠، الأنبياء: ٨٧، النور: ١٦، الفرقان: ١٨، سبأ: ٤١.

عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ **الْمُشْرِكِينَ** ﴿يوسف: ١٠٨﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ **الْمُشْرِكِينَ**﴾، أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعلن تسبيحه وتنزيهه لربه عز وجل كما أمر أن يعلن عن دعوته ^(١).

ووردت هذه الصيغة كذلك في سياق أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بتسبيحه في أوقات مخصوصة، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَنَ **اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ۝ وَلَهُ **الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صلوا له، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وذلك صلاة المغرب، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، وذلك صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيًا﴾ يقول: وسبحوه أيضًا عشيًا، وذلك صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يقول: وحين تدخلون في وقت الظهر» ^(٢).

ففي هذه الآية: إخبار عن تنزه الله عز وجل عن السوء والنقص، وعن أن يماثله أحد من الخلق، وفيها أيضًا: أمر للعباد أن يسبحوا ربهم عز وجل حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات هي أوقات

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢٨٤/٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/٦٦.
(٢) جامع البيان ٨٣/٢٠.

وبتبع هذه الآيات نجد أن التسبيح بهذه الصيغة قد ورد على لسان الملائكة المكرمون في ثلاث آيات منها، وورد على لسان ثلاثة أنبياء من أنبياء الله عز وجل - وهم يونس عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام - في ثلاث آيات أخرى، والآيات الثلاث المتبقية ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة على لسان المؤمنين.

ثالثًا: التسبيح بصيغة (سبحان الله). وهذه الصيغة هي أشهر صيغ التسبيح، وتكثر هذه الصيغة أيضًا في سياق الآيات التي يسبح الله عز وجل فيها نفسه العلية عن شرك المشركين وافتراء المفتريين؛ من نسبة الولد أو الشريك لله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَى بَعْضٍ **سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ **سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٥٩].

وقوله أيضًا: ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْزْ إِلَهُ عَذِّرَ اللَّهِ **سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الطور: ٤٣].

ووردت هذه الصيغة أيضًا في سياق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن دعوته التي يدعو هو وأتباعه الناس إليها، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل^(١).

رابعاً: التسبيح بصيغة: (سبحان الذي) (الاسم الموصول العائد على الله عز وجل).

ورد التسبيح بهذه الصيغة في أربع آيات من كتاب الله عز وجل؛ وكل هذه الآيات قد وردت في سياق بيان بعض مظاهر قدرة الله عز وجل وعظمته سبحانه، وبيان بعض نعمه على عباده؛ وهذه الآيات هي: قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا قَوْلَهُ لِرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [١٢] لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

خامساً: التسبيح بصيغة: (سبحان ربي)، و(سبحان ربك)، و(سبحان ربنا).

ورد التسبيح مضافاً إلى الرب -جل وعلا- في خمسة مواضع من كتاب الله عز وجل، في موضعين من هذه المواضع ورد بصيغة الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جَاءَهُ﴾ (١٧٨) وَأَنْصَرَفَ فَسَوْفَ يَصْرُوفُ (١٧٩) سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَلَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧٨ - ١٨٢].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتَنْفَجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

ففي هذه الآيات الأخيرة أمر الله عز

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٨.

له سبحانه ولد؛ فهو سبحانه مستغن عن الولد؛ وهو سبحانه رب كل شيء، قال ابن عاشور: «ووصفه -في هذه الآية- بربوبية أقوى الموجودات وأعظمها؛ يفيد انتفاء أن يكون له ولد؛ لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم، وإلا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنه لا يلحقه فناء؛ فوجود الولد له يكون عبثاً»^(٢).

وورد التسييح بصيغة: (سبحان ربنا) في موضعين من كتاب الله عز وجل.

الموضع الأول: على لسان مؤمني أهل الكتاب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكافرين الذين كفروا بالقرآن الذي أنزل: ﴿ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه، أنزله الله، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزل على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من صالح أهل الكتاب، الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه

وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزهه ربه عز وجل عما طلبه أولئك الكفار السفهاء من مطالب فيها سوء أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، طلبوها على سبيل التعنت والتعجيز له صلى الله عليه وسلم؛ حيث طلبوا منه أموراً لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، وليست في مقدور أحد سواه، فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزهه عن أقوالهم الباطلة، ومطالبهم السفهية، فتنزه الله سبحانه عن أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة^(١).

وورد التسييح مضافاً إلى رب السماوات والأرض في موضع واحد، وهو قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۖ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ﴾ [الزخرف: ٨١-٨٢].

وهذه الآية من الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عما افتراه عليه المفترون من اتخاذ الولد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وفي ذكره عز وجل في هذا الموضع بصفته رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم -وهذه المخلوقات أعظم ما خلق الله سبحانه- يفيد انتفاء أن يكون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/٢٦٦.

ولم يبدلوه ﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ خُزُونٌ لِّلَّذْقَانِ سَجْدًا﴾ أي لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم^(١).

والموضع الثاني: هو قول الله عز وجل إخبارًا عن أصحاب الجنة: ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩].

فبعد أن ذكرهم أوسطهم، وعادوا إلى رشدهم، سارعوا إلى تنزيه ربهم عز وجل وتسييحه، نزهوه سبحانه عن أن يكون ظالمًا فيما فعل بهم؛ بل هم الذين ظلموا أنفسهم بتركهم قول: إن شاء الله، وبما قصدوا من حرمان المحتاجين^(٢).

سادسًا: التسبيح المقرون بالحمد (سبحان الله وبحمده).

ورد الأمر بقرن التسبيح لله عز وجل بحمده سبحانه في سبع آيات من كتاب الله عز وجل؛ حيث قال تعالى في أربع آيات

منها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾^(٣)، وفي آيتين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾^(٤)، وفي آية واحدة قال سبحانه: ﴿وَنُكَلِّ عَلَى الْغَنِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله عز وجل الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وقوله تعالى عن ملائكته: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥] وغير ذلك من الآيات.

وتسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة يكون بأن يجمع بين التسبيح والتحميد، وذلك بأن يقول القائل: سبحانه الله وبحمده، وهذا ما دل عليه فعل النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)^(٥).

(٣) ورد ذلك في أربع آيات من كتاب الله عز وجل، وهذه الآيات هي: طه: ١٣٠، غافر: ٥٥، ق: ٣٩، الطور: ٤٨.

(٤) الآيتان هما: الحجر: ٩٨، النصر: ٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٤٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤١٢.

في ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(٤)، وفي موضع واحد ورد الأمر بقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وليس المراد من التسبيح باسم الله أن يقول العبد: سبحان اسم الله؛ وإنما المراد بذلك التسبيح أن يسبح العبد بقلبه ولسانه لله عز وجل^(٥).

قال ابن القيم: «إن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان»^(٦).

ومما يؤيد أن المراد من التسبيح باسم الله العظيم هو قول: (سبحان ربي العظيم ذكرًا بالقلب واللسان ما جاء في الحديث

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع لنا تسبيح الملائكة لربها عز وجل، وذلك عندما سئل: أي الكلام أفضل؟ فقال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)^(١).

وهذا التسبيح المقرون بالحمد يتضمن التعظيم لله تعالى على الإجمال والكمال؛ وذلك لأن التسبيح مع التحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعاييب كلها عنه سبحانه، وإثبات المحامد كلها له سبحانه^(٢).

وإن تسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة هو أحب الكلام إليه سبحانه، ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب الكلام إلى الله. فقال: (إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)^(٣).

سابعاً: التسبيح باسم الله العظيم. ورد الأمر بالتسبيح باسم الله العظيم

رقم ٤٩٦٧، ٦/١٧٨، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، ٢٠٩٣/٤، رقم ٢٧٣١، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية ص ٢٢.

(٣) سبق تخريجه في الحديث السابق.

(٤) وردت هذه الآية في كتاب الله عز وجل في ثلاث مواضع: الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٢٧٣.

(٦) التفسير القيم ٢/١٨٥.

مواطن التسبيح

إن المتدبر للآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يجد أن التسبيح يشرع في مواطن مخصوصة -فضلاً عن التسبيح العام في كل وقت وعلى كل حال- ، ومن خلال استقراء تلك الآيات نجد أن معظم التسبيح الوارد فيها جاء في مواطن تنزيه الله عز وجل عن شرك المشركين، وافتراء المفترين، أو في مواطن الحديث عن عظمة الله تعالى وجلاله، وبيان آياته الباهرة في خلقه، ويشرع التسبيح أيضاً في مواطن التعجب، وعقيب الطاعات، وبعد الفوز بنصر الله عز وجل.

ونقف فيما يأتي على بيان هذه المواطن، مستشهدين ببعض الآيات في ذلك:

أولاً: التسبيح في موطن تنزيه الله عز وجل:

لقد سبح الله عز وجل نفسه العلية عن كل نقص أو عيب نسبته إليه الكفار المشركون الجاهلون بربهم عز وجل؛ فنزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، ونزه نفسه عن الشريك والند والمثيل، والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى في بحث واحد.

فمن الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عن اتخاذ الولد، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَسِيحَ يَأْسِرُ رَيْكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نزلت: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في سجودكم)^(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٤٥٠، ١٥٥/٤، وأبو داود في سننه، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ١/٢٣٠، رقم ٨٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود، ١/٢٨٧، رقم ٨٨٧، والحاكم في المستدرک، رقم ٣٧٤٢، ٤٧٧/٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: إياس ابن عامر الراوي عن عقبة ليس بالمعروف.

فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفَجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ شَقِطَ
السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتَى بِاللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ
زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفٌ فِي السَّمَاءِ وَلَكِنْ نُّؤْمِنُ لِرَبِّكَ
حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي
هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠ - ٩٣]﴾

فأمر الله عز وجل نبيه أن يسبحه في
موطن خاض فيه أولئك المشركون فيما
ينافي تنزيه الله عز وجل وإجلاله.
قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد
لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك
هذه الأقوال، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهاً لله
عما يصفونه به، وتعظيماً له من أن يؤتى به
أو بملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء
مما تسألوني، ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾
يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم،
فكيف أقدر أن أفعل ما سألتهموني من هذه
الأمر، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم،
وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم،
والذي سألتهموني أن أفعله بيد الله عز وجل،
الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك
غيره»^(١).

وقد ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه
عيسى عليه السلام له سبحانه يوم القيامة

(١) جامع البيان ١٧/ ٥٥٥.

وَالْأَرْضُ كُلُّ لَهَا قَبِيلُونَ ﴿[البقرة: ١١٦]﴾
وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].
وقوله: ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ
وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

أما الآيات التي سبج الله عز وجل فيها
نفسه عن شرك المشركين، وعن أن يكون
له شريك في ملكه أو ألوهيته، فهي أيضاً
كثيرة في كتاب الله عز وجل، منها - على
سبيل المثال -: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ
إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا نُنْفَخُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾
سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِثْقَلُ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

ولقد أمر الله عز وجل رسوله محمداً
صلى الله عليه وسلم بأن يسبحه عندما
طلب منه سفهاء المشركين - على سبيل
الاستهزاء - أن يأتيهم بمعجزات لا يقدر
عليها البشر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ
نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا
﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ

عما افتراه المبطلون؛ من عبادته عليه السلام من دون الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الملائكة المكرمون يسبحون ربهم عز وجل، منزهين له سبحانه عن افتراء المفترين وشرك المشركين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنْ أَنْتُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٤٠ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَآدْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

«وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يسبح الله تعالى عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه سبحانه؛ من قول أو فعل أو اعتقاد»^(١).

ثانيًا: التسبيح في المواطن الدالة على قدرة الله عز وجل وعظمته:

إن المواطن التي يستشعر فيها العبد عظمة ربه عز وجل، ويرى من عجيب قدرة الله عز وجل؛ لا يمكن لمخلوق حصرها، ولا يحيط بها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى، وكم من عجائب لله تعالى في العالمين يتغافل عنها الناس ويتجاهلونها؛ إلا أولي الألباب منهم، الذين قال الله

(١) التسبيح في الكتاب والسنة/ محمد كنده ١٨/٢.

عز وجل فيهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١٠ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيكُمْ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

إن هؤلاء المتفكرين في خلق الله عز وجل من أولي الألباب لما استشعروا عظمة الخالق امتلأت قلوبهم تنزيهاً له سبحانه، وانطلقت ألسنتهم بتسبيحه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾، فإن المواطن التي يقف فيها العبد على شيء من عظيم قدرة ربه وبديع صنعه، لا يملك العبد فيها إلا أن يلهج بتسبيح ربه وتنزيهه عن كل نقص أو عيب نسبه إليه المبطلون.

«إن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر ونظر، ودقق وتفكر، يتوجه إلى الله تعالى متضرعاً معلناً قناعته بحكمة الله العليا في خلق المخلوقات»^(٢).

ولقد افتتح الله عز وجل سورة الإسراء بالتسبيح؛ لأن السياق يتحدث عن معجزة عظيمة لا يقدر عليها أحد إلا الله سبحانه، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٠٧.

-سواء كان التعجب من عظمة قدرة الله عز وجل أو تعجب من غير ذلك-، ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

فتسبيحه تعالى لنفسه في هذه الآية كما يتضمن تنزيهه عن اتخاذ الولد، يتضمن كذلك التعجب من هذه المقولة الباطلة^(٣). ومن ذلك -أيضاً: قوله تعالى لنبية محمد صلى الله عليه وسلم جواباً عما اقترحه الكفار من الآيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ تعجب من تعنت هؤلاء الكفار ومن ظنهم السيء في الله عز وجل، وتنزيه له عز وجل عما لا يليق به مما يصفونه به، ومن أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكه^(٤). وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يشرع له أن يسبح الله عز وجل عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه، من قول أو فعل أو اعتقاد^(٥).

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في

فالإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم آية من آيات الله دالة على عظيم قدرته سبحانه. قال ابن عاشور: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام يؤذن بأن خبراً عجباً يستقبله السامعون، دالاً على عظيم القدرة من المتكلم سبحانه»^(١).

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في موطن بيان عظمة الله عز وجل، قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله في ذات السورة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٨٢) فُسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢-٨٣].

قال ابن كثير: «أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه رجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل»^(٢).

ثالثاً: التسبيح في موطن التعجب:

ومن المواطن التي يرد فيها التسبيح ويشرع: موطن التعجب، وقد ورد التسبيح في عدد من الآيات في موطن التعجب

(٣) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١٧/٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٣١/١٠.

(٥) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١٨/٢.

(١) التحرير والتنوير ٩/١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٨٧/١١.

الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَادْبِرْ السُّجُودَ ﴿٤٠﴾ [ق: ٣٩-٤٠].

ففي هذه الآية يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر، ويأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة خصها سبحانه، وذكر سبحانه من هذه الأوقات: أدبار السجود، وللمفسرين أقوال في المقصود بالتسبيح في أدبار السجود، ذكرها الإمام الطبري فقال: «واختلف أهل التأويل في معنى التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبحه أدبار السجود، فقال بعضهم: عني به الصلاة، فقالوا: وهما الركعتان اللتان يصليان بعد صلاة المغرب. وقال آخرون: عني به التسبيح في أدبار الصلوات المكتوبات، دون الصلاة بعدها. وقال آخرون: هي النوافل في أدبار المكتوبات»^(٢).

وسواء كان التسبيح المأمور به في أدبار السجود هو صلاة النوافل أم كان مطلق التسبيح؛ فالأمران يصلح أن يطلق عليهما تسبيح؛ فالصلاة تسبيح، والتسبيح المطلق المعروف تسبيح، وقد جاءت السنة بالحث على التسبيح في أدبار الصلوات، وذلك في عدة أحاديث، من ذلك: ما رواه كعب ابن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (معقبات لا يخيب قائلهن -أو

موطن التعجب، قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

ففي هذه الآية يؤدب الله عز وجل المؤمنين بما يجب عليهم فعله وقوله إذا سمعوا كلامًا يسيء إلى عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي عليهم أن يبادروا إليه هو إنكار هذا الكلام أشد الإنكار، وأن يزجروا أنفسهم عنه زجرًا ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، أي: ما يصح منا إطلاقًا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الكذب والافتراء، وعلمهم ربهم في هذا الموطن أن يسبحوه سبحانه؛ يسبحوه على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر، فقولهم في هذا الموطن: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه؛ فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة كذب يبهت ويدهش من يسمعه، وهو في الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة^(١).

رابعًا: التسبيح عقيب الطاعات:

ومن المواطن التي يشرع فيها التسبيح أيضًا: بعيد الانتهاء من الطاعات والعبادات، كالتسبيح في أدبار الصلوات، وقد أمر الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

(٢) جامع البيان ٢٢/٣٧٧.

(١) الوسيط، طنطاوي ٩٨/١٠.

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ من صنوف العرب وقبائلها ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يقول: في دين الله الذي بعثك به أفواجًا، يعني: زمراً، فوجاً فوجاً، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده، وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يقول: وسله أن يغفر ذنوبك؛ إنه كان ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب»^(٢).

ومن هذه السورة الكريمة نعلم: أن من أعظم المواطن التي يشرع فيها التسبيح شكرًا لله عز وجل، موطن حصول النصر للمؤمنين.

ولقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه عز وجل فيما أمره به في هذه السورة، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان صلى الله عليه وسلم يكثر -بعد نزول هذه السورة- أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن^(٣). قال النووي في شرحه لهذا الحديث:

فاعلمهن-: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة، في دبر كل صلاة^(١).

خامسًا: التسبيح بعد النصر:

إن النصر بيد الله عز وجل، يمتن به على من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

فإذا أنعم الله عز وجل على الأمة بالنصر على أعدائها، فعليها أن تجتهد في شكر ربها على هذه النعمة العظيمة، ولقد علم الله عز وجل الأمة المؤمنة كيف تشكر ربها عز وجل عند حصول نعمة النصر، وذلك من خلال تلك السورة العظيمة التي أنزلها الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وهي آخر سورة أنزلت كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم -، موجهًا له كيف يقابل نعمة ربه بالنصر والفتح المبين.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣].

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٧١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٥٠/٢، ١١١٢.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم ٩٨/٢، ١٣٧٨.

«معنى يتأول القرآن: يعمل ما أمر به في قول الله عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وكان صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفي ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود؛ لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أمر به ليكون أكمل»^(١).

سادسًا: التسبيح عند الاستواء على المركوب:

يشرع للمسلم إذا ركب مركبًا من دابة، أو سفينة، أو سيارة، أو طائرة، أو غيرها من وسائل النقل أن يسبح الله عز وجل تسبيحًا مقرونًا بالحمد والتهليل والتكبير والاستغفار، وذلك امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾^(١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ^(١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿[الزخرف: ١٢ - ١٤].

ففي هذه الآيات يذكر الله عز وجل عباده بما خلق من أصناف المخلوقات المتنوعة، ويمتن سبحانه على عباده بما جعله لهم من

أنواع المراكب التي يركبونها في البحر والبر، إلى حيث قصدوا في الأرض لمعايشهم ومطالبهم، ويعلمهم ما يقولون إذا استقروا على ظهور هذه المراكب، من تسبيح الله عز وجل، وشكره على نعمه، التي منها: تسخير هذه المراكب للناس، والتي لولاه سبحانه ما أطاقوها ولا ضبطوها؛ ولكنه سبحانه من لطفه وكرمه سخرها وذلها ويسر أسبابها، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(٢).

ولقد شرع الله عز وجل تسبيحه عند الاستواء خاصة ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأن العبد في هذا الموطن - موطن الشعور بالانتفاع بالنعمة - يكون أدعى لشكر النعمة، وأوقع في نفسه، وأبعد ما يكون عن الغفلة عنها^(٣).

ولقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر الله به معلمًا الأمة كيفية الامتثال لأمر ربها عز وجل، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبير ثلاثًا، ثم قال: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/٦٧٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/٨٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/١٧٤.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٤/٢٠١.

العمل ما ترضى...^(١).

أَلْفَعْرُ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ [الأنبياء:

٨٧-٨٨].

وفي مشروعية التسبيح عند الاستواء على ظهر المركوب شكراً لنعمة الله عز وجل تذكير بمشروعية التسبيح عند الانتفاع بكل ما سخر الله عز وجل لنا في هذه الدنيا، فشكر النعمة واجب، ومن أعظم أوجه شكر المنعم سبحانه تسبيحه وتقديسه وتزيهه، فسبحان الله وبحمده.

سابعاً: التسبيح عند الكرب:

فمن المواطن التي أشار القرآن الكريم إلى مشروعية التسبيح فيها أيضاً: موطن الكرب والشدة، فقد يتعرض العبد في هذه الدنيا إلى الوقوع في شدة أو كرب، يحتاج عندئذ إلى الالتجاء إلى من ينجي من الكرب، ويفرج الشدائد، و﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولقد علمنا ربنا عز وجل ماذا نقول في مناجاتنا له سبحانه عند الكرب، وذلك من خلال ما أخبر به سبحانه من قصة ذي النون عليه السلام، عندما ناجى ربه في الظلمات.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر، رقم ٣٣٣٩، ١٠٤/٤.

(٢) سبق تخريجه.

أزمنة التسبيح

ذكر الله عز وجل التسبيح في كتابه العزيز مقيداً بأوقات مخصوصة وأزمنة معينة، حاثاً عباده على الإكثار من تسبيحه في تلك الأوقات المباركة، ومن خلال تتبع الآيات التي ورد فيها ذلك^(١) يمكن أن نجملها بما يأتي:

أولاً: التسبيح في العشي والإبكار:

ورد الأمر بالتسبيح بالعشي والإبكار موجهاً إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ مَا يَتُوكَ إِلَّا تُكَذِّبُ النَّاسَ فَلَنفَعَنَّ آيَاتِنَا إِلَهُكُمُكَ وَأَذْكُرَنَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ففي هذه الآية: أمر الله عز وجل نبيه زكريا عليه السلام بأن يذكره كثيراً، وبأن يسبحه في وقتين مخصوصين؛ وهما: العشي والإبكار^(٢).

والعشي: هو من حين زوال الشمس إلى أن تغيب. قال الأزهري: «ويقع العشي

(١) بلغ عدد المواضع التي ورد فيها التسبيح مقيداً بزمان معين في كتاب الله عز وجل اثني عشر موضعاً، في اثني عشرة سورة، وهذه المواضع هي: آل عمران: ٤١، مريم: ١١، طه: ١٣٠، النور: ٣٦، الروم: ١٧-١٨، الأحزاب: ٤٢، ص: ١٨، غافر: ٥٥، الفتح: ٩، ق: ٣٩-٤٠، الطور: ٤٩، الإنسان: ٢٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٨/٣.

على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء»^(٣).

وأما الإبكار فهو مصدر أبكر، بمعنى خرج ما بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى، فوقت الإبكار هو أول النهار، من الفجر إلى الضحى^(٤)، وبذلك يكون الله عز وجل قد أمر زكريا عليه السلام بأن يكثر من التسبيح في آخر النهار وأوله.

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في وقتي العشي والإبكار أيضاً: ما ذكره الله عز وجل عن نبيه زكريا عليه السلام، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

فبعد أن أمره الله عز وجل بأن يكثر من ذكر ربه، ويداوم على تسبيحه في العشي والإبكار، خرج عليه السلام إلى قومه، وأشار إليهم بأن يسبحوا هم أيضاً في هذين الوقتين العظيمين؛ شكراً لله عز وجل على ما أنعم عليه^(٥).

ومن الآيات التي فيها أمرٌ بالتسبيح في وقتي العشي والإبكار: قول الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

(٣) تهذيب اللغة ٥٨/٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/٣٩٢، الوسيط، الواحدي ص ٢٠٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/٢٢٠.

وبأن يكثر من تسبيح ربه عز وجل وتنزيهه عند حلول الليل وعند تباكير الصباح، فإن هذا الاستغفار وذلك التسبيح خير زاد للوصول إلى السعادة، والفوز في الدنيا والآخرة^(٢).

قال السعدي: «أمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصاً ﴿يَا لَعِشَىٰ وَالْإِبْكَرِ﴾» اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور^(٣).

ومن الآيات التي ذكرت التسبيح في أول النهار وآخره: قول الله عز وجل مخبراً عن عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشَىٰ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(١٨) وَالطَّيْرُ تَحْشُورُهُ كُلُّ لَهْوٍ وَأَوَّابٍ^(١٩). [ص: ١٨-١٩].

أي: إن الله تعالى سخر الجبال تسبح مع داود عليه السلام عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه،

الصغائر على الأنبياء، ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء، والفائدة زيادة الدرجات، وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده، وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة. الجامع لأحكام القرآن ٣٢٤/١٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٢٤/١٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٣٩.

وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشَىٰ وَالْإِبْكَرِ [غافر: ٥٥].

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التي أخبر الله عز وجل فيها عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وذكر ما تعرض له عليه السلام من شدة وأذى من فرعون وملئه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ^(١٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقَتْلُوكَ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

وذكر أخبار ذلك الرجل المؤمن الذي وقف في وجه فرعون نصرته لموسى عليه السلام، باذلاً وسعه في هداية قومه وإرشادهم ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

جاءت هذه الآية بعد ذلك تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر تأسيًا بمن سبقه من الرسل والأنبياء، ومبشرة له صلى الله عليه وسلم بأن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ سينصر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم كما نصر موسى عليه السلام، ثم أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستغفر لذنبه^(١)،

(١) قال القرطبي في معنى لذنبك: «قيل: لذنب أمتك، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: لذنب نفسك على من يجوز

وترجع بترجيئه؛ إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب؛ بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له^(١).

ويفهم من الآية أن نبي الله داود عليه السلام كان يسبح ربه تسبيحاً خاصاً في هذين الوقتين ﴿بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وتسبح معه الجبال والطير فيهما، والإشراق الوارد في الآية: هو وقت شروق الشمس إلى وقت الضحى، وهو بذلك مرادف لوقت الإبكار الوارد في الآيات السابقة.

ثانياً: التسبيح بكرة وأصيلاً:

ورد التسبيح في كتاب الله عز وجل مقيداً بوقتي البكرة والأصيل في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

ففي هاتين الآيتين: يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى وبكثرة تسبيحه في الصباح والمساء؛ لما لهم في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب^(٢).

فوقت البكرة هو وقت الإبكار، وهو

-كما ذكرنا- أول النهار، أما الأصيل فهو الوقت من بعد العصر إلى غروب الشمس، وهو بذلك مرادف لوقت العشي، وحدده بعض أهل اللغة بأنه آخر العشي، قال ابن فارس: «الأصيل بعد العشي»^(٣).

وذكر بعض المفسرين أن المقصود بالتسبيح بكرة وأصيلاً: صلاة الصبح وصلاة العصر^(٤)، والصلاة متضمنة للتسبيح ولا شك، وذكر بعضهم أن الله عز وجل يأمر في الآية بالتسبيح في كل الأوقات، مجدداً الزمان بطرفي نهاره وليله^(٥).

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين: بيان للوظيفة التي كلف الله عز وجل بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من الشهادة على الناس، وتبشير المؤمنين، وإنذار العصاة والكافرين، وفي الآية الثانية: بيان للحكمة من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أن يقوم الناس بالإيمان بالله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويعظموا الرسول ويوقروه، ويسبحوا الله عز وجل

(٣) تهذيب اللغة ١/ ١١٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧٩.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ١٨٠.

أول النهار وآخره^(١).

أما الموضع الثالث: فهو قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

وفي هاتين الآيتين: مدح لعمار بيوت الله عز وجل، الذين يديمون التسبيح له سبحانه في بيوته في أول النهار وآخره، «وخص هذين الوقتين لشرفهما، ولتيسر السير فيهما إلى الله عز وجل وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها؛ ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء»^(٢).

والمراد بالغدو الوارد في الآية: هو نفس وقت البكرة الوارد في الآيات السابقة، وهو وقت أول النهار^(٣).

ثالثاً: التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأثناء الليل وأطراف النهار، وأدبار السجود:

ورد التسبيح في هذه الأزمنة في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١٤٧/٢.

الموضع الأول: قول الله تعالى مخاطباً

نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بأن يصبر على ما يقوله المشركون المكذبون من أباطيل، وأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة؛ وهي: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وفي ساعات الليل، وفي ساعات النهار.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في هذه الأوقات: هو الصلوات المكتوبة، فقد روى ابن أبي حاتم «عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: هي الصلاة المكتوبة. وعن قتادة في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال: هي صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ قال: صلاة الظهر»^(٤).

ولا يخفى أن الصلاة مشتملة على تسبيح الله عز وجل، فيكون الأمر بالتسبيح هنا مشتملاً الأمر بالصلاة والأمر بالتسبيح فيها،

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢٢٢٥/٧.

والثالث: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات»^(٣).

وفي أمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار دليلٌ عظيمٌ على أن التسبيح فيه إعانة على الصبر بالمأمور به^(٤).

والأمر بالتسبيح في نهاية الليل قد ورد أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُودِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

فالمراد بإدبار النجوم وقت آخر الليل^(٥)، فيكون هذا الوقت داخلًا في وقت آناء الليل، وداخلًا أيضًا في وقت قبل طلوع الشمس.

أما الموضع الثالث: ففيه أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح في جزء طويل من الليل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦].

فأمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم -بعد أمره بالذكر بكرة وأصيلًا- بتسبيحه في مقدار من الليل طويل، والمراد بذلك: صلاة التهجد التي كانت مفروضة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المراد بالتسبيح هنا: الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو

فيكون المعنى: «وسبح بحمد ربك في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وفي صلاة العصر قبل غروبها، وفي صلاة العشاء في ساعات الليل، وسبح بحمد ربك أطراف النهار في صلاة الظهر -إذ وقتها طرف النصف الأول والنصف الثاني من النهار- وفي صلاة المغرب؛ كي تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به»^(١).

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وهاتان الآيتان مماثلتان للآية السابقة، حيث أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون، وهما أيضًا متضمنتان للأمر بالصلوات الخمس المفروضة؛ فالتسبيح قبل طلوع الشمس يشمل صلاة الفجر، والتسبيح قبل غروبها يشمل صلاة العصر، وقيل: يشمل الظهر والعصر، والتسبيح من الليل يشمل صلاتي المغرب والعشاء^(٢).

وللمفسرين في هذا التسبيح -أي التسبيح في أدبار السجود- ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب. والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات.

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٢١.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٤.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٢٣.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٧/ ٤٣٢.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ص ٢٥١.

بظلامه، فيكون هذا أمراً بالتسبيح في بعض الليل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَرَجَيْنَ تَصَبُّحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، والصباح إسفار النهار بضيائه، وهذا الوقت مرادف لوقت البكرة والإبكار، ومرادف أيضاً لوقت قبل طلوع الشمس، وقوله: ﴿وَعِشَاءً﴾ أي حين تزول الشمس إلى المغيب، وهذا مرادف لوقت قبل غروب الشمس، وقوله: ﴿وَرَجَيْنَ تَظْهِرُونَ﴾ أي حين يشتد الضياء من النهار، وهذا الوقت داخل في وقت أطراف النهار^(٤).

قال السعدي: «فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وما يقترب بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله عز وجل أفضل من غيرها؛ فالتسبيح والتحميد والعبادة فيها أفضل من غيرها؛ بل العبادة وإن لم تشتمل على قول (سبحان الله) فإن الإخلاص فيها تنزيه لله عز وجل بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه سبحانه

في غيرها^(١).

رابعاً: التسبيح في الصباح والظهر والمساء وحين القيام:

ورد الأمر بالتسبيح في وقت الصباح والمساء والظهر موجهاً للمؤمنين جميعاً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُو وَرَجَيْنَ تَصَبُّحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشَاءً وَرَجَيْنَ تَظْهِرُونَ [الروم: ١٧ - ١٨].

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من هاتين الآيتين أمر المؤمنين بالصلوات الخمس؛ فقولهم: ﴿حِينَ نُمْسُو﴾ أي: صلاة المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَرَجَيْنَ تَصَبُّحُونَ﴾ أي: صلاة الصبح، وقوله: ﴿وَعِشَاءً﴾ أي: صلاة العصر ﴿وَرَجَيْنَ تَظْهِرُونَ﴾ أي: صلاة الظهر^(٢).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح هنا معناه اللغوي، أي تنزيه الله عز وجل، فيكون المراد في الآية: الأمر بتنزيه الله عز وجل عما لا يليق به سبحانه، في وقت الصباح والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهر^(٣).

ووقت المساء هو وقت إقبال الليل

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥٠/١٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٦/٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨٣/٢٠.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣١١/٤.

(٤) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٣٦/٩.

الأوقات وتتابعها، وما يحدث فيها من أمور مختلفة عجيبة دالة على قدرة الله عز وجل وعظمته، وذلك موجب لتسبيحه عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

ثم إن لهذه الأوقات مزية خاصة؛ حيث إن الله عز وجل خصصها لشرفها، ولتيسر السير فيها إلى الله عز وجل، فكان التسبيح لله سبحانه فيها من أحسن ما تنهض إليه عقول المؤمنين، وترطب به السنة الصالحين، تنزيهاً لله سبحانه، وتعظيماً له وثناءً عليه^(٥).

من الإخلاص والإنابة^(١).

وذكر بعض المفسرين أن المراد: أن الله سبحانه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات؛ لما يتجدد فيها من النعم.

ويحتمل أن تكون هذه الأوقات كناية عن استغراق الزمان كله في التسبيح، فيكون العبد ذاكرة ربه في كل وقت وعلى كل حال^(٢).

أما الأمر بالتسبيح عند القيام فقد ورد في قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وللمفسرين أقوال في المراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾، عدد ابن الجوزي ستة منها، أشهرها: أن المراد بذلك: حين تقوم من منامك للصلاة. وقيل: حين تقوم من مجلسك^(٣)، ورجح الإمام الطبري القول الأول^(٤).

وفي ختام هذا المبحث تبين أن الله عز وجل جعل للتسبيح أوقاتاً مخصوصة، وأن هذه الأوقات قد شغلت معظم أوقات الإنسان - إن لم يكن كلها -.

ولعل الحكمة من تخصيص تلك الأوقات للتسبيح هي أن تعاقب هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٣٨.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٦١/٧.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦٠/٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٨٩/٢٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٩.

ثانيًا: الفوز بشاء الله عز وجل.

إذ إن الله عز وجل قد أثنى في كتابه العزيز على عباده المسبحين، فقال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ٣٦﴾ وَإِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ٣٧ وَالْأَبْصَارُ ٣٨ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ٣٩ وَاللَّهُ يَزِدُّ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[النور: ٣٦ - ٣٨].

وفي موضع آخر مدح الله سبحانه عباده المسبحين فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿[السجدة: ١٥].

ثالثًا: التسبيح عون على الصبر، وسبب لزوال الكرب وضيق الصدر. ولهذا أمر الله عز وجل به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع في القرآن الكريم؛ ليكون له فيه العون على الصبر، والفرج من الكرب، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿[طه: ١٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنكَ يُضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ

فوائد التسبيح

إن من تأمل في الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يعلم -ولا ريب- مدى عظم هذه العبادة الجليلة، وعظم فوائدها على العبد المؤمن في الدنيا والآخرة، ونذكر فيما يأتي بعض هذه الفوائد:

أولًا: التسبيح من أعظم العبادات وأجل القربات إلى الله عز وجل.

فهو عبادة الملائكة المكرمين؛ بل هو عبادة المخلوقات جميعًا، ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿[الإسراء: ٤٤].

ولقد ذكر الله عز وجل أنه أرسل رسوله ليقوم الناس بالإيمان، وليقوموا بتسبيح الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الفتح: ٨ - ٩].

وبهذا فإن العبد المؤمن يجتهد في تسبيح ربه عز وجل؛ في الليل والنهار، وفي السر والعلن، في الشدة والرخاء، مبتغيًا رضا الرحمن، مقتديًا بالملائكة الأطهار، راجيًا الأجر الجزيل والثواب العظيم من الله رب العالمين، سبحانه وتعالى.

﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

ولقد نجا الله عز وجل نبيه يونس عليه السلام من الظلمات بسبب تسبيحه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٣﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

رابعاً: التسبيح من أعظم ما يشكر به العبد ربه عز وجل على عطاياه التي لا تعد، ونعمه التي لا تحصى.

قال تعالى: ﴿لِاسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

خامساً: التسبيح سبب لمغفرة الخطايا والذنوب.

ولقد رغبت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما ترغيب، فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر)^(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله

العظيم)^(٢).

سادساً: التسبيح أفضل ما يستعد به العبد للقاء ربه عز وجل. فقد اختاره الله عز وجل لنبيه وصفيه ليختتم به أجله في هذه الدنيا، ويلقى به ربه عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الحمد، الدعاء، الذكر، الصلاة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، رقم ٧٥٦٣، ٩/١٦٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم ٦٤٠٥، ٨٦/٨.